أوراق المجلة الدولية للدراسات الأدبية والإنسانية ـ مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة ـ جامعة باتنة1 ـ الجزائر
.....-.... EISSN ISSN 2779-2940 المجلد 03 العدد 01 (مارس السنة 2021) ص119إلى 136

بوادر تشكل العلاقات الثقافية بين تلمسان والأندلس
ـ أبرز العلماء والعوامل المساعدة ـ

Signs Shaping Cultural Relations between Countries of the Maghreb: Tlemcen and Andalusia
-Prominent Scholars and Contributing Factors-

فضيلة هدار*[1]، د. مصطفى هادف[2]

[1]جامعة باتنة 1، fadhilanor1906@gmail.com

[2]جامعة باتنة 1، moustafahadef74@gmail.com

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	2020/12/02م	2021/02/26م

ملخص

تعد دراسة العلاقات بين الدول من أهم المواضيع التي تلقى اهتماما كبيرا لدى الباحثين، وذلك لما تكشفه من أسرار وخبايا؛ أولا حول طبيعة العلاقة، وثانيا في مدى اختلاف أطراف التأثير في ذات العلاقة. وقد قامت تلمسان الوسيطية الزيانية بدور بارز في بلورة العلاقة بين الجزائر ككل، ودول البحر المتوسط، كونها عاصمة ومركزا للثقافة حينها، وقد مثل هذه العلاقة أطراف متميزة بتأثيرها، وكانت جهودها اللبنة التي تكونت منها الصلة بين الطرفين، وهذه الأطراف هي العلماء مع عناية خاصة، واستثنائية تمتعوا بها في أحضان السلطة ممثلة في الأمراء الزيانيين.

الكلمات المفتاحية: بوادر الارتباط؛ الأندلس؛ بلاد المغرب. ؛ العلاقات الثقافية، التواصل الثقافي.

Abstract

The study of relations between countries is one of the most important topics receiving great attention among researchers, due to the secrets and mysteries it reveals; firstly, the nature of the relationship and secondly, the extent of the difference between the influencing parties in the relationship. Significantly, Tlemcen -the Zian mediation- played a prominent role in reshaping the relationship between Algeria as a whole and the countries of the Mediterranean, being the capital and the center of culture at the time. In the embrace of power represented by the Ziani princes, influential scholars made great efforts in building the relationship between the two parties.

Keywords: relations; countries of the Maghreb; Tlemcen; Andalusia.

*المؤلف المرسل

1-مقدمة

إن ميلاد العلاقات بصفة عامة بين أي طرفين يكون نتيجة لأسباب عديدة تساهم في ربطهما في مجالات معينة، وقد كان تشكل العلاقات الثقافية بين العدوتين المغربية والأندلسية والتي هي موضوع هذا البحث؛ نتيجة للارتباط السياسي بينهما خاصة، فلم تكن الأندلس إلا امتدادا للفتح في الغرب الإسلامي، فإطلاق تسمية الغرب كان على المناطق التي دخلها الإسلام في الجناح الغربي للعالم الإسلامي. (مؤنس، 1992م، ص23)

ثم إن كون الأندلس قد تم فتحها انطلاقا من قاعدة الغرب الإسلامي مع نفس القادة، الذين تمَّ بهم إتمام عملية فتح المغرب الإسلامي، كموسى بن نصير، وطارق بن زياد، والتي كانت تابعة لسلطان والي القيروان (باعتبار أن القيروان هي عاصمة الفتح، أو عاصمة المغرب الإسلامي بعد الفتح، وقد تأسست أول مرة على يد الفاتح عقبة بن نافع)، وتابعة من الناحية القانونية (المراكشي، 1994م، ص10) في إطار ما نسميه بالولاية الكبرى (جعيط، د ت، ص8) إلى التبعية السياسية الرسمية في عهد المرابطين والموحدين التي وحَّدت العدوتين تحت سلطة واحدة، في مجال حضاري وثقافي مشترك، حيث انفردت الرقابة العربية على المنطقة كليا بفاعلية حقيقية (جعيط، ص57) جعل التفاعل بينهما أي بين الأندلس ودول المغرب تأثيرا وتأثرا أمرا حتميا، وذلك لما كان من اختلاط بين أهل العدوتين، في شتى المجالات خاصة مع استقرار جيوش الفتح في المنطقة، ثم بداية الرحلات بين الطرفين. ويذهب ابن خلدون في هذا الصدد إلى أن المغرب انتقل إليه من الأندلس ـ منذ دولة الموحدين ـ حظ كبير من الحضارة، واستحكمت من عوائدها لما كان لدولتهم من الاستيلاء على بلاد الأندلس، والسيطرة عليها، وتبعية

حكمها لحكم المركز في المغرب، فقد اشتركوا في عدة عناصر كالمذهب الفقهي، وانتشرت اللغة العربية بينهم، وغيرها.

لذلك فإن تشكل العلاقات الثقافية بين العدوتين كان نتيجة لعدة عوامل تاريخية، نحسب أن الارتباط السياسي أهمها، بالإضافة إلى اشتهار الرحلة العلمية وسط أهل العلم والمهتمين به، وكذلك حملات الجهاد نحو بلاد الفرنجة، ثم نشاطات مختلف العناصر كالتجار، والجنود، وقد نشط هذه العلاقة بدرجة عالية عناصر متنوعة في تاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط، كما أشرنا، وكان في مقدمة هذه العناصر العلماء.

وفي هذه المداخلة نحاول التركيز على العلاقات الثقافية بين قطر من أقطار المغرب الإسلامي وهو المغرب الأوسط وبالتحديد تلمسان الواقعة غربا في الحدود مع المغرب الأقصى، مع العدوة الثانية أو القطر الثاني له وهو الأندلس وذلك خلال الفترة الزيانية، وهي مرحلة تاريخية متميزة عُرِفت برقي العلوم المختلفة، وتطورها، وباستقرار سياسي سمح ببروز مجال العلوم أكثر، وانتشار العلماء فيها ومنها، مولين الاهتمام ومركزين على فئة العلماء، ودورها في تنشيط هذه العلاقة، والحفاظ عليها لتكون مظهرا ذا أهمية بالغة في دراسة مثل هذه العلاقات، إذ يعد انتقال العلوم والأفكار وسيطا حيويا لربط العدوتين ثقافيا، وتشكيل علاقة وصلة وطيدة كان جسرها العلماء وطلبة العلم، وذلك من خلال رحلاتهم أو لقاءاتهم، وحلقات العلم التي جسدت تواصلهم مع حواضر الأندلس، وكذا بالنسبة لعلماء الأندلس، ومساهمتهم في نقل العلوم إلى الأمصار التي يشدون الرحال إليها من جهة أخرى.

- كيف كان علماء المغرب الأوسط في تلمسان الزيانية، مظهرا دالا على تشكل هذه العلاقة الثقافية مع الأندلس؟

- من هم أشهر العلماء التلمسانيين الذين نشطوا العلاقة مع الأندلس؟
- ما هي أهم العناصر التي ساعدت العلماء في إنجاح العلاقة بين تلمسان والأندلس؟

2. دور علماء تلمسان في تشكيل العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط والأندلس

مما لا شك فيه أن علماء تلمسان في العهد الزياني كانوا على درجة عالية من العلم والاجتهاد، والحرص على التميز والنبوغ في مختلف العلوم، وهو ما نجده في تراجم هؤلاء الشخصيات، إذ يشار دوما إلى المراتب العليا للعالم المترجم له، وتحصى مجالات نبوغه وشهرته، ودل على ذلك كثرة العلماء الذين احتضنتهم الفترة الزيانية، وتشعب مجالات اختصاصاتهم مع أنهم حافظوا على سمة الموسوعية في أغلب الأحيان. ومن العلوم التي كانت مزدهرة آنذاك ومتداولة، علوم الشريعة من علم الفقه، وعلم القراءات والرسم والحديث وعلوم السيرة النبوية والمديح، وعلم الفرائض والتصوف، إضافة إلى علوم الأدب واللغة والرياضيات، والطب، والفلك والتاريخ والرحلة والجغرافيا، وقد ساهم انتشار مثل هذه العلوم ونبوغ العلماء في تلمسان في استقطاب الراغبين في الأخذ عنهم والاستزادة من معارفهم.

وفي هذا الجو المفعم بالنشاط العلمي، نبغ عدد كبير من العلماء، وذاع صيتهم، وسبقت شهرتهم معرفتهم، وذلك بفضل الحركة العلمية الكبيرة التي شهدتها تلمسان الزيانية والتي كان من أبرز مظاهرها انتشار المناظرات، والمناقشات العلمية المستمرة بين علمائها (شريخي، 2010م، ص63) الذين اكتسبوا المكانة والتقدير والاحترام اللائق داخل وخارج بلادهم (بوكريدمي، ص42)، مما جعلهم يفعّلون المشهد الثقافي، ويسهمون في تشكيل العلاقة

الثقافية بين تلمسان كحاضرة علمية ثقافية، وبين مختلف أقطار العالم الإسلامي كالشام والحجاز والعراق.

ونلاحظ أثناء تتبعنا لمسارات رحلات العلماء، أن تلمسان صارت مقصدا للعلماء والطلبة (شريخي، 2010م، ص63) المغاربة أو الأندلسيين خاصة، شأنها شأن قرطبة في الأندلس، وبغداد، ودمشق، والقيروان، وفاس، وغيرها من حواضر الإسلام.

لقد كان من علامات ودلائل ازدهار تلمسان ثقافيا كثرة العلماء وغزارة إنتاجهم الفكري وضخامته (فيلالي، 2007م، ص297)، حيث أنجبت عددا من العلماء في مختلف المجالات؛ برعوا، واشتهروا، وتميزوا، كل واحد في مجاله، وهناك من برع في عدة مجالات، فكانوا قمة في العلم والاجتهاد، ونماذج يقتدى بها في حب العلم والسعي في نشره والاجتهاد في كسبه، وفيما يلي أذكر أهم العلماء الذين مثلوا جسر هذه العلاقة، ووجودهم شكل مظهرا مميزا لها، وهم كلهم ينتمون في أصلهم إلى تلمسان.

1/أبو عبد الله محمد بن لب الأندلسي (ت 725 ه)

2/ابن مرزوق الحفيد (ت 842ه): تلميذ الشريف التلمساني، ارتحل إلى الأندلس وعكف على الدراسة بها.

3/أبو الفضل قاسم العقباني (ت 854ه)

4/أحمد بن أبي يحي بن محمد الشريف (ت825ه)

5/أبو موسى عمران بن موسى المشذالي: (ت 745ه): الشيخ الفقيه العالم، كان له دور هام في المناقشات العلمية التي كانت تجري بين الفقهاء، وكان متميزا بين أقرانه. اعتنى بمواضيع التقييد، والتقليد، والاضطهاد، وأصول المذهب المالكي.

6/عبد الله بن محمد بن أحمد التلمساني الذي وصلنا منه كتابه في الفقه سماه "مفتاح الوصول إلى علم الأصول" (قاسمي، 2012م، ص15)

7/إبراهيم بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى الأنصاري: تلمساني وقرشي، ويُكَنَّى أبا إسحاق ويعرف بالتلمساني. ولد سنة 609هـ بتلمسان وتوفي سنة 690 بسبتة. (ابن الخطيب،1323/1973هـ، ص من327-329). كان فقيها عارفا بعقد الشروط، مبرزا في العدد، ماهرا في كل ما حاول...، قال عنه ابن عبد الملك: "وخبرت منه في تكراري تيقظا وحضور ذهن، وتواضعا وحسن إقبال، وبر، وجميل لقاء ومعاشرة، وتوسطا صالحا فيما يناظر فيه من التواليف، واشتغالا بما يعنيه من أمر معاشه، وتخاملا في هيئته ولباسه. قال ابن الزبير: كان أديبا لغويا فاضلا، إماما في علم الفرائض".

شيوخه

درس عند أبي بكر بن دسمان بمالقة وأبي صالح محمد بن محمد الزاهد...وأجازوا له".

مؤلفاته

الأرجوزة الشهيرة في الفرائض، إذ لم يصنف في وقتها أحسن منها، ونظام في السير ومديح النبي صلى الله عليه وسلم، وكان وقتئذ التصنيف في مديح رسول الله صلى الله عليه وسلم شائعا بين العلماء.

أخبر عن نفسه أن أباه انتقل به إلى الأندلس، فاستوطن غرناطة ثم مالقة ثم انتقل إلى سبتة.

8/أبو علي منصور بن علي بن عبد الله الزواوي: (ت 770هـ)، درس بتلمسان وبجاية والأندلس والمغرب الأقصى حتى نبغ في كثير من العلوم كالفقه والتفسير، وله اليد الطولي في الإفتاء. (فيلالي، 2007م، ص316).

9/أبو زيد شيخ المالكية في تلمسان العلامة الأوحد أكبر الأخوين المشهورين بأولاد الإمام، الإمام التنسي البرشكي، وهما فاضلا المغرب في وقتهما" (المالكي، ص486) وأخذ عنهما أكبر العلماء كالشريف التلمساني والمقري، وأبي عثمان العقباني، والخطيب بن مرزوق الجد.

10/الفقيه أبو عبد الله المقري (758هـ): أصل أسرته من مقرة انتقلت إلى تلمسان، وبها ولد، وهو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد، كانت أسرته ذات مكانة طيبة في المغرب والأندلس، وهي أسرة ذات علم وثقافة، وقد ورث شهاب الدين عن أسلافه مكتبة حافلة وكان أحد أجداده أستاذا للوزير الغرناطي لسان الدين بن الخطيب في القرن السابع الهجري، درس بتلمسان، من أهم شيوخه عمه سعيد بن أحمد المقري، مفتي تلمسان، وكان ككل علماء عصره موسوعيا، فقرأ القرآن والحديث والأصول والفقه والأدب والتاريخ، كان لقاؤه مع أقرانه من مختلف الجهات خاصة الأندلس التي نزح منها بقية المسلمين بعد سقوط غرناطة، فكان مدرسا لصحيح البخاري، وعند عودته إلى القاهرة شرع في كتابه (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب)، وفيه مزج المادة التاريخية بالأدب والشعر، في أربعة أجزاء اثنان حول الأندلس واثنان حول الوزير". (قحة، 1985م، ص234-245)

04/الشريف التلمساني (711هـ)

تعلم على يد موسى بن محمد بن معطى العيدوسي، وقد كان أهم مشايخ الفقه في فاس، وكان الشريف التلمساني مهتم بالعلوم ومنها القراءات، ودراسة شروح الشاطبية (حرز الأماني ووجه التهاني) وعلم الحديث، تلقى الموطأ على الفقيه المغربي أحمد القباب، كانت تأتيه الأسئلة من غرناطة فيرد عليها، وتلقي

كتاب الشفا بحقوق المصطفى لعياض بن موسى اليحصبي السبتي (ت544هـ) على يد أبي عبد الله محمد بن أبي دقيق المكناسي. (بوكرديمي، 2011م، ص43)

فكما نلاحظ من هذه العينة وإن كانت قليلة، أن هؤلاء العلماء فرضوا مكانتهم، بفضل علمهم واجتهادهم في تحصيله ثم في تدريسه، وقد اشتهرت مجالات نبوغهم في أصقاع العالم أجمع بخاصة الأندلس التي كانت لهم بها اتصالات في مجال التعليم، إما ذهابا وقصدا إليها أي إلى الأندلس أو استقبالا للأندلسيين في عدوتهم بتلمسان التي أصبحت بلا منازع حاضرة العلم وقبلته خاصة بين العلماء في الفترة الزيانية، ولم يكن ذلك من فراغ بل ساهمت عدة أسباب وعوامل في تحقيق والوصول إلى ذلك المستوى وتلك المرتبة.

3. العوامل المساهمة في تشكيل العلاقات الثقافية بين القطرين

إن كانت العلاقة بين تلمسان والأندلس في الفترة الزيانية اتسمت بالمتانة، واشتهرت العلاقات الثقافية بحظ أوفر، فإن ذلك لم يكن من فراغ ولا وليدا للصدفة، وتفاعلا مع الظروف، بل هناك أسباب وعوامل ساهمت في وصول هذه العلاقات إلى الشهرة التي كانت عليها، بل وكان لها الفضل في نشأتها وتشكلها، ومن أبرز العوامل المساعدة على هذه الحركة والنشاط، والتي ساهمت بقسط وافر من الجهد في تشكيل وتطوير الصلات الثقافية بين المغرب الأوسط والأندلس، والتي كان لها الفضل الكبير في دعم واستمرار الحوار الحضاري نذكر:

1/ دور الرحلة العلمية في تشكل العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط تلمسان والأندلس

عرف عن علماء تلمسان شغفهم الكبير بالرحلة بين مختلف البلدان إن المغربية أو المشرقية أو الأندلس. فأحيانا: "لاستكمال تكوينهم العلمي، وأحيانا بدافع الكتابة والتأليف" (بوكرديمي، 2011م، ص42).

وهو ما دأب عليه العلماء المسلمين عامة، فكانت الرحلات "المتتابعة من أهل الأندلس وأبنائها إلى بلاد المغرب للتزود من علمائها كثيرة، كما كانت من طرف علماء المغرب إلى الأندلس حيث يبثون علمهم ومعارفهم ويأخذون عن شيوخها" (مصطفى مسعد، 2000م، ص220) لتكون بهذا الرحلات المتبادلة من علماء القطرين في كل العصور من أهم الروابط الثقافية، وقد ترجم ابن الفرضي في كتابه (تاريخ علماء الأندلس) لأكثر من مائة عالم مغربي رحلوا إلى الأندلس، والعكس بطلب العلم والتزود به، فخلقوا بذلك فضاء متميزا حق تسميته بالنهضة الفكرية الحقيقية". (مصطفى مسعد، 2000م، ص220)

خاصة وأن أهل البلدين يقابلون الوافدين إليهم بالترحيب، والتشجيع الكبير الذي تظهره الفئة الحاكمة لهم، وقليل ممن ارتحلوا من العلماء يعودون إلى بلدانهم، وهنا تكمن أهمية الرحلة في تشكيل، وتثبيت العلاقة الثقافية، ونشرها للفكر، والعلم والتأثير به على المستفيدين، وتمكن الرحالة بذلك بفضل هذه الرحلات من إدخال مختلف الكتب. فلما دخل علماء الأندلس إلى تلمسان ولاحظوا طريقة تعليم الأطفال القرآن التي كانت مقتصرة على الحفظ دون خلط أي مواد أخرى، رأوا أن يساهموا في تطوير أسلوب التعليم القرآني بتلمسان فمارسوا مهنة التعليم حتى أدخلوا موادا جديدة جنب التحفيظ، محاولين إضافة الجديد إلى ما تقدمه المدرسة؛ كرواية الشعر والترسل، وقوانين اللغة، وتجويد الخط، وروايات القرآن، والقراءات وغير ذلك. (فيلالي، 2007م، 340)

ومن علماء الأندلس الذين ارتحلوا أيضا إلى المغرب الأوسط أبو بكر بن محمد الإشبيلي حيث استقر بها، وولي صلاة الجماعة والخطبة في الجامع الأعظم ببجاية، وكانت له حلقات أفاد بها مستمعيه والمقتدين به (الغبريني، 1979م، ص291-294)، لتقوم الرحلة بذلك بدور كبير، وتساهم بشكل مباشر كأهم عامل

في تمتين العلاقات الثقافية بين الدول، وتنشيط الحركة الفكرية بينها، وتشكيل: "معالم الوحدة الثقافية الإسلامية بين العدوتين، وكمثال اشتراك الكتب المتداولة بين العلماء وبالتالي توحد الانشغالات والاهتمامات". (زكري، 2012م، ص157).

وبالتالي فإن الرحلة العلمية كانت من أقوى العوامل التي ساهمت في ظهور وتشكل وتطوير العلاقة بين الأندلس وتلمسان، وكسبها الشهرة كذلك، وكما لاحظنا فإن حلقات التتلمذ أو التعليم كانت سبيلا لتبادل العلوم ونشر الثقافات بين العدوتين.

ولطالما كان حلم العلماء وطلبة العلم في الترحال كبيرا، وشغفهم بالتعرف على أهل العلم من كل الأمصار أكبر، فكان الترغيب في الرحلة منتشرا بين الأقران، وحب الاستكشاف والتطلع على ما كان منتشرا في الأصقاع حلم أهل العلم، وهذا الشغف هو من حملهم إلى الترحال والسفر وترك الأهل والولد لهدف تحصيل العلوم والاستزادة من المعارف، وهو ما جعل تشكل العلاقات الثقافية بين مختلف الأقطار مثل تلمسان والأندلس تصل إلى ذروة التطور.

2/ دور البحر

تعد تلمسان المدينة الجزائرية الأكثر شهرة في العهد الزياني، فهي عاصمة المغرب الأوسط في العصر الوسيط، حكمها الزيانيون (بلعربي، 2009م، ص25) الذين خلفوا الموحدين بعد سقوطهم بالتوازي مع الحفصيين والمرينيين الذين اقتسموا حكم بلاد المغرب فيما بينهم بالتوزيع الآتي:

- الأسرة الحفصية حكمت تونس وليبيا وعاصمتها تونس
- الأسرة الزيانية: حكمت الجزائر أو المغرب الأوسط وعاصمتها تلمسان
- الأسرة المرينية السعدية: حكمت المغرب الأقصى وعاصمتها فاس.

ومن المعروف أن الطريق الرابط بين العدوتين (المغرب والأندلس) هو البحر، فإن العامل الجغرافي المتمثل في قرب المنطقتين وسهولة المضيق الفاصل

بينهما كقناة هامة من قنوات الاتصال حتى أنه كاد أن يصير بلدا واحدا"، (مصطفى مسعد، 2000م، ص175). وقد وصفت كتب الرحلة والبلدان والجغرافيا هذه المسافة وحددت طولها بـ "اثني عشر ميلا" (المراكشي، 1994، ص266) أو ثمانية أميال، (ابن خلدون، 2000م، ص129) وأكدوا أن المسافة بين المغرب والأندلس تتضايق مع منطقة التقاء البحرين، بحر الروم وبحر أوقيانوس، وهذا سيساهم في تفعيل الصلات بين القطرين وتقوية العلاقات بينهما.

فقد كان للبحر دور هام في تسهيل التواصل والتقارب بين القطرين، وظل حاضرا على الدوام ضمن أهم عوامل التطور الحضاري الذي عرفته المجتمعات الإنسانية ومنها المجتمع المغربي والأندلسي، فلم يقتصر دوره على المساهمة في النشاط الاقتصادي فحسب، بل كانت له أدوار أساسية أخرى نذكر منها مساهمته في نقل التيارات الحضارية والثقافية من بلد إلى آخر، ومن قارة إلى أخرى (قاسمي، ص76). وكان العلماء وطلبة العلم يقطعون هذه الطريق بأفكارهم، ويتزودون من علوم الطرق الأخرى دون أن يكون ذلك عائقا بل شكل متعة كبيرة في سفرهم.

3/ دور السلطة والحكام في تشجيع تكوين هذه العلاقات

إن دور السلطة بصفة عامة في التحكم في تفاصيل الحياة وحيثياتها، واطلاعها بما هو حاصل وسط الرعية من مستجدات، هو فعل مطلوب من ذوي القيادة، وذلك في إطار علاقة متكاملة بين الطرفين، يكون لكل منهما دور تجاه الآخر، ويبين مدى إحكام العلاقة، وشدة ارتباطها من جهة، كما ويؤكد ضرورة الوصول إلى الوحدة تحت لواء مشترك يطبق فيه القانون الملزم على الجميع، وبذلك تظهر الشراكة بين الأطراف، والمجال العلمي هو مرآة المجتمعات الذي نقيس به تطورها

وتحضرها، لذا سيكون لزاما على ذوي العلاقة الاهتمام به كأهم جانب يضمن الرقي.

وقد كان لأمراء بني زيان بالغ الأثر في تنشيط هذه العلاقة، وذلك من خلال تشجيعهم للعلم، وانتمائهم إليه، واتصافهم به، فأبو حمو موسى الثاني كان أديبا شاعرا.

ومنهم من اهتم بالفقه وغير ذلك، وقد: "أتاحوا الفرصة للحوار والمناظرة والتعمق في البحث... حتى صارت تلمسان من المراكز التي تستقطب الطلاب لأنها تفسح لهم مجال العمل ونشر العلم" (فيلالي، 1995م، ص302)، فكانوا أي الحكام يقربون إليهم العلماء سواء الزيانيون أو الأندلسيون" بالقدوم عليهم ويجودون عليهم بالعطاء جودا حاتميا" (قويدر، 2012م، ص86). وكان الأمير يغمراسن على سبيل المثال يستدعي العلماء ليقلدهم مناصب مختلفة في بلاطه. وقد حدث ذلك لما "استدعى أبا بكر محمد بن عبد الله بن خطاب المرسي الأندلسي (ت 686) إلى بلاطه كاتبا له" (فيلالي، 1995م، ص302)، ثم وفد عليه الكاتب ابن وضاح الأندلسي، وكذلك كان أبو حمو موسى الأول الذي استطاع أن يجعل تلمسان منارة للعلم، ومقصدا لأهله، وفي عهده قصدها ابني الإمام (فيلالي، 1995م، ص303)، وكان لهما دور فعال في تشكيل وتطوير هذه العلاقات الثقافية بين العدوتين لما ذاع عنهما من نبوغ في العلم، ودرجة في الفقه، ولما كان لهما من مكانة بين أقرانهما وعامة علماء الإسلام.

ونشير إلى جانب مهم اعتنى به أمراء بني زيان وأولوه أهمية كبيرة، وكان له دور عظيم؛ بل وكان من أهم الأسباب والعوامل التي عملت على تشكيل وتطوير وترقية العلاقات الثقافية بين تلمسان الزيانية وبالتالي المغرب الأوسط والأندلس هو بناء المدارس التعليمية، وقد امتازت طريقة بنائهم لها عن ما عرف في وقتهاK فكانت تعكس بحق ما كان عليه الفكر الزياني، وهو ما يترجم أن الأمراء حقيقة

كانوا ذوو بعد نظر وتخطيط ثاقب، وكذلك رسما توضيحيا لما رأوه وأرادوه لدولتهم، كما لم يكن جديدا في تاريخ الإسلام عامة، والغرب الإسلامي خاصة اهتمامهم بالعلم والعلماء، بل كان ذلك متوارثا ومعروفا من قبل، ليكونوا بذلك قدوة لمن جاء بعدهم، كما كان لهم من قبلهم، فجعلوا العلم ركنا أساسيا، ومشغلا رئيسيا في برنامجهم ليتحقق التوازن، ويصلوا إلى السياسة الرشيدة الراشدة المطلوبة والمرغوب في تحقيقها، وتجسيد معالمها على أرض الواقع.

ظهرت المدارس لأول مرة في تلمسان كمؤسسات تُطَوِّر وتُشَجِّع الحركة العلمية، وهي تعتبر نموذجا للتأثر بمناهج المشرق من خلال علماء المغرب الذين كان لهم وجود مؤثّر في المشرق حيث ترددوا على معاهده العلمية متعلّمين ومعلّمين، فنقلوا بذلك إعجابهم بالمدارس النظامية (بن قربة، 2007م، ص135) التي بناها الوزير السلجوقي نظام الملك، ليكون هذا من أبرز مظاهر التواصل بين أقطار العالم الإسلامي مشرقه ومغربه.

ولأن المدارس الزيانية ساهمت واهتمت بالنسبة الأكبر بالمذهب المالكي فقد ساعد ذلك في نزوح عدد كبير من فقهاء الفقه المالكي خاصة من الأندلس بعد سقوط المدن الأندلسية خلال القرن السابع الهجري (فيلالي، 1995م، ص310) فكانت المدارس التلمسانية في نشأتها الأولى مقترنة بالمذهب المالكي لتعزيز مكانته في الدولة (بن قربة، 2007م، ص12)، وعمل الأمراء الزيانيون على إنجاح دور هذه المدارس واستقدموا: "للتدريس بها كبار العلماء الذين طبقت شهرتهم بلاد المغرب والمشرق"(قويدر، 2012م، ص26).

فبالإضافة إلى كون هدف وغاية الأمراء الزيانيين من إنشاء هذه المدارس، هو تشجيع العلم، وتطوير النشاطات الثقافية لهذه المدارس، فقد كانوا يشرفون مباشرة على المدارس بأنفسهم، ويؤكدون على مواضيع التدريس، وأساليب توجيه

الرعية لبعث الاستقرار، كما حرصوا على تثبيت المذهب المالكي، وتوجيه الفكر الإسلامي في حاضرة الزيانيين(فيلالي، 1995م، ص311)، فكانوا بذلك على اطلاع دائم على سير عمل هذه المؤسسات العلمية، والوقوف على أدوارها ووظيفتها، وفيما يلي نذكر أشهر وأهم المدارس التي عرفت أو تم إنشاؤها وبناؤها في العهد الزياني، كأهم معلم ومؤشر مباشر لجذب العلماء، ولاحتضان طلبة العلم، وتوفير الأساليب الأنجع لتلقيهم التعليم، وتقديم ما يحتاجونه من خدمات التعليم والإيواء والإطعام، وغيرها من الخدمات التي اشتهرت المدارس الزيانية بتوفيرها وتقديمها لهم.

- مدرسة أولاد الإمام

أنشأها السلطان أبو حمو موسى الأول سنة 710 هـ، تكريسا للعالمين الفقهيين أبي زيد عبد الرحمن وأخيه أبي موسى عيسى ابني الإمام الفقيه أبي عبد الله محمد بن الإمام من برشك. اكتسبت هذه المدرسة مكانتها وأهميتها من شهرة إضافتها وتسميتها إلى العالمين ابني الإمام اللذين قال فيهما الونشريسي: "وأما بنو الإمام فأعلاهم طبقة الشيخان الراسخان الشامخان العالمان المفتيان الشقيقان الفقيه العلامة آخر صدور أهل المغرب بشهادة أهل الإنصاف شرقا وغربا أبو زيد، والعلامة النظار آخر أهل النظر وجامع أشتات المعارف أبو موسى ابن الإمام".

كما عرفت أيضا بالمدرسة القديمة، وكان موقعها بالقرب من باب كشوط غرب مدينة تلمسان (غرابي، 1436هـ، ص37)

وكانت هذه المدرسة الأكثر شهرة، ولها دور فعال في استقطاب العلماء وطلبة العلم، لما تقدمه من خدمات، وثانيا للشهرة الكبيرة التي حظي بها ابني الإمام.

- المدرسة التاشفينية

بناها السلطان أبو تاشفين بن أبي حمو موسى الأول، وهي ثاني مدرسة أو مؤسسة لبني عبد الواد بالمغرب الأوسط، فكانت هذه المدرسة قبلة للعلماء، وطلبة العلم لفترة من الزمن، إلى أن هدمت من طرف الاستعمار الفرنسي (فيلالي، 1995م، ص142)

ولم تكن هذه المدرسة أقل نفعا من سابقتها، فشهرة الأمير ابن تاشفين، كان لها الدور البارز في دعم نشاط هذه المدرسة وكسب الطلبة وجذبهم إليها.

- المدرسة اليعقوبية

أسسها أبو حمو موسى الثاني نسبة إلى والده أبي يعقوب، (بن قربة، 2007م، ص155،144) وقد جاء وصف هذه المدرسة في كتاب زهر البستان: "فأقيمت مدرسة مليحة البناء، واسعة الفناء، بنيت بضروب من الصناعات، ووضعت في أبدع الموضوعات ..." (فيلالي، 2013م، ص 143)

كان الجديد في هذه المدارس هو تطورها من مجرد مكان لإعطاء وتلقِّي الدروس، إلى مكان لإيواء الطلبة الغرباء عن المدينة، فإلى جانب المدرسة كانت تُبْنَى أجنحة إقامة للوافدين إليها، وهذا عد عاملا قويا في استقطاب وجذب التلاميذ إليها، وبذلك أصبحت عامرة، ومشهورة، وهذا ما جعلها قبلة لأهل العلم، وسمح لها ذلك بأن تكون في الصدارة مشاركة بذلك مدينة فاس والقيروان وقرطبة، وباقي الحواضر العلمية في الغرب الإسلامي في تلك الفترة.

وكل هذا التطور في بناء المدارس، وفي توسيع خدماتها ونشاطاتها، والاجتهاد في تسميتها بما يليق بها وبمهمتها، وكذلك الإشراف المباشر للأمراء على متابعة عملها، واستقدام وتنصيب المعلمين بها، جعل منها مقصدا يرتاده كل من له عناية

بالعلم، طلبة وعلماء، واعتماد الزيانيين على خبرات علماء الأمصار كالأندلس زاد من شهرتها وتعظيم فائدتها، ومكانتها.

4.خاتمة

وفي الختام نخلص إلى أنَّ العلاقات الثقافية بين بلدان حوض البحر المتوسط والجزائر كانت رائدة ومؤثرة بالتوازي، وقد نشَّط هذه العلاقة نخبة لامعة من علماء تلمسان الزيانية، ولم تكن لتنجح بهذا المستوى لولا الحوافز، والمنشطات التي ساهمت في تشكيل خط أو طريق معبد لها، عمل على ضمان ربط المنطقتين علميا وفكريا وثقافيا، والتي كان من أهمها ما ذكرناه في هذا المقال من دور للبحر؛ باعتباره مسلكا استراتيجيا، ومعبرا رسميا من وإلى الأندلس عبر المضيق، وللحكام كونهم المحفز الأقوى، والدعم المستمر، وأصحاب الأمر والنهي في إعطاء راية العمل، ثم للرحلة التي كانت فنا اهتم به العلماء غاية الاهتمام، وكانت أسلوبا مشتركا بينهم قصد تطوير علومهم، والوقوف على ما وصلت إليه الحركة الفكرية في كل أقطار العالم الإسلامي، كل هذه العوامل التي ساهمت في مساعدة هؤلاء العلماء على أن يكونوا حلقة الوصل، بين القطبين المغربي والمشرقي، والمترجم الرئيس لهذه العلاقة بين هذين القطرين، الجزائر والأندلس على العهد الزياني، وهي موضوع دراستنا هذه.

وبالتالي فإن البحث والدراسة في مواضيع العلاقات الثقافية خاصة، تسعى إلى الكشف عن أهم الأساليب المتبعة في نشر العلوم، وترفع اللبس عن معاناة العلماء في سبيل تحصيل العلم أولا، ثم نشره والإفادة منه ثانيا، وعن أهم الوسائل والاستراتيجيات المقدَّمَة من طرف الهيئات المسؤولة لدعم نشوء وتطوير العلاقات الثقافية.

5.قائمة المصادروالمراجع

1. ابن الخطيب، لسان الدين. 1323هـ/1973م. الإحاطة في أخبار غرناطة. القاهرة: مكتبة الخانجي.
2. ابن خلدون، عبد الرحمن. 2000م. ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. بيروت: دار الفكر.
3. بختاوي، قاسمي. 2012م. من أعلام تلمسان- أبو عبد الله الشريف التلمساني- دورية كان التاريخية.
4. بختاوي، قاسمي. التعليم بالكتاب في المغرب الأوسط إبان حكم بني عبد الواد (633هـ-681) (1235-1554م). دورية كان، ع12، نقلا عن الحسين بولقطيب، المغرب والبحر خلال العصر الوسيط.
5. بلعربي، خالد. 2009م. المجاعات والأوبئة بتلمسان في العهد الزياني، 698-845هـ/1229-1442م. دورية كان التاريخية.
6. بن قربة، صالح. 2007م. تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر. الجزائر: المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م.
7. بوكرديمي، نعيمة. 2011م. الانشغالات العلمية لعلماء تلمسان بفاس خلال القرنين الثامن الهجري/الرابع عشر ميلادي، دورية كان التاريخية.
8. جعيط، هشام. تأسيس الغرب الإسلامي. بيروت: دار الطليعة.
9. زكري. لامعة. 2012م. الرحلة العلمية ودورها في إثراء المفهوم والدوافع والأنواع، دورية كان التاريخية.
10. شريخي، نبيل. 2010م. المناظرات والمناقشات العلمية لعلماء تلمسان في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، دورية كان التاريخية.

11. الغبريني، أبو العباس. 1979م. عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية. بيروت: دار الآفاق الجديدة.
12. غرابي، حدة: 1436هـ/ 1437هـ فن العمارة في المغرب الأوسط في العهد الزياني (633-962هـ/1235-1555م)، مذكرة مكملة لنيل شهادة ماستر في التاريخ الوسيط، الجزائر: جامعة مسيلة)
13. فيلالي، عبد العزيز. 1995م. تلمسان في العهد الزياني (دراسة سياسية عمرانية اجتماعية، ثقافية)، أطروحة لنيل درجة دكتوراه الدولة في التاريخ الإسلامي. الجزائر: جامعة الجزائر.
14. فيلالي، عبد العزيز. 2007م. تلمسان في العهد الزياني. الجزائر: عاصمة الثقافة العربية.
15. قجة، محمد حسين.1405هـ/1985م. محطات أندلسية، دراسات في التاريخ والأدب والفن الأندلسي. جدة: الدار السعودية.
16. قويدر، عباس. 2012م. المؤسسات التعليمية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن الهجري الرابع عشر ميلادي. دورية كان التاريخية.
17. المالكي، ابن فرحون. الديباج المذَهَّب في معرفة أعيان علماء المذهب. القاهرة: دار التراث.
18. المراكشي، عبد الواحد. 1414هـ/1994م. المغرب في تلخيص أخبار المغرب. القاهرة: دار الفر جاني.
19. مسعد، سامية مصطفى. 2000م. العلاقات بين المغرب والأندلس في عصر الخلافة الأموية. عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.
20. مؤنس، حسين. 1992م. معالم تاريخ المغرب. مكتبة الأسرة.